

لا يختلف اثنان في كوننا اننا نعيش اليوم وسط عالم تتقاذفه الصراعات والمشاكل والحروب. يكون فيه الانسان المتضرر و المسبب في ان واحد, فيجد نفسه ثارة غالبا و ثارة مغلوبا, ثارة حاكما و ثارة محكوما , ثارة ظالما و ثارة مظلوما. وكما وجدت في طبيعته فانه دائما ما يحاول ان تربع عرش الاقوى والاعلى فتتربص به رغبة حمقاء تجعله يتخبط للانتقال الى الاسمى. وهنا نجد انفسنا في مواجهة السؤال التالي: هل من الممكن ان يحتفظ الانسان في هذه الحالة على إنسانيته ام انها تبدأ في الاندثار؟ واذما ما قبلنا ان هاجس التربع على كرسي الاقوى يصبح المتحكم الوحيد و الاوحد في شخصية الانسان. فهل يأخذ هذا الهاجس انسانية الانسان قربانا لاحتجاجة على وضعه و غضبه على الواقع؟ ام انه يبقيها بعيدة عن نزاعه و صراعه؟ خاصة ان الطرف المقابل لا يقف مكتوف الايدي بل يكرس كل جهوده للحفاظ على منزلته ضمن صراع البقاء. وهنا تبدأ النزاعات تأخذ مجرى لإنسانيا ويعطي كل الحق لنفسه لسحق كل ما يعرقل طريقه مجردا نفسه من كل الرحمة و الشفقة و ذلك للوصول الى مبتغاه.

فما الانسانية؟ هل هي موجودة ام انها مجرد حلم يسعى الانسان الى تحقيقه؟ ما الذي يبرز انسانيتنا؟ و ما المجرى الذي اخذته في عصرنا الراهن؟

لعلنا ننتظر من الجميع ان يتبنى نفس التصور ازاء الانسانية كوننا نعتبرها من المفاهيم البديهية التي لا نجد داع لتعدد تعاريفها , لكننا سرعان ما نصطدم مع اراء مخالفة تجعلنا نعيد لسؤال حولها وهذا ما يميز الخطاب الفلسفي المتمسم بالغمى و التنوع عن غيره من الخطابات بحيث كل واحد منا ينظر اليها من زاويته و ابيدولوجياته الخاصة, او بالاحرى يراها وفق منظوره الخاص اعتمادا على معتقداته و مواقفه .

لقد شكل التنظير لمفهوم الانسانية اهتمام الابداء و العلماء حيث ذهب بعضهم لتعريف الانسانية انها مجموعة المعايير و الخصوصيات الأخلاقية على رأسها التسامح والصدق و المساواة و غيرها من القيم التي تميز الانسان عن غيره من الكائنات. في حين ذهب البعض الاخر الى تعريف الانسانية على انها خاصية التحرر من الانانية المطلقة, اذ الإنسان يولد انانيا تحكمه مصلحته, و لكنه في اطار تداخلات سوسيولوجية مجتمعية, يتخلص من حبه المفرط لذاته و يتعلم معنى التنازل و المشاركة و حب الغير.

فالإنسان عندما يحب الأخر تأخذ قشرته السطحية القاسية بالتكسرتحل محلها مشاعر العطف و الرحمة و الشفقة .والإنسان الذي يعطي الحب لغيره فإنما يعطيه لنفسه بالأساس الشيء الذي ينعكس ايجابا على سموه الروحي و بذلك على تعامله مع المجتمع .

وإذا ما تمعنا بالنظر فيما تحمله الانسانية من معاني ينتابنا التساؤل حول مصدرها الاولي بمعنى اخر هل الانسانية معطى قبلي وجد في الانسان ؟ ام انها تنشأ وفق تطوره ضمن الظروف المجتمعية ؟

إذا ما افترضنا ان الانسانية هي صيرورة تنشأ مع تطور الانسان , فكيف يعقل ان نجد اطفالا صغارا لا يعرفون شيئا عن الانسانية كمفهوم لكن تصرفاتهم تحيل على تمتعهم بقدر من الانسانية ؟

نستطيع اذن ان نخلص الى ان الانسانية تولد مع الانسان بالفطرة , ويقول جون جاك روسو في هذا الاطار "يولد الانسان عاديا طيبا لكن فساد المجتمع هو الذي يفسد طبيعته البشرية "اي ان الانسانية موجودة ويكفي التأمل لإبرازها , الامر الذي يقع على عاتق المجتمع الذي يطور القيم الانسانية و يوجهها . لنحصل فيما بعد على الانسان نقول عنه انساني ,انسان يفرح لفرح الاخرين و يتعاطف معهم عند مواجهتهم لصعوبات ,انسان يقبل انه رغم اختلافاتنا السطحية فلا بد من تعايشنا وتضامننا وذلك لكوننا ننتمي لزمرة الانسانية ,انسان لا ينسب النجاحات التي حققها لنفسه وإنما ينسبها للإنسانية جمعاء .

نكون قد اخطأنا اذا ما اعتقدنا ان الانسانية تختصر فقط على مجموع المواصفات والتعبير التي نراها من وجهة نظرنا انها انسانية, بل هي قبل كل شيء تخلي عن المعتقدات والقوانين اذا ما تطلبها الامر .فالإنسانية ليست شعار نزين به افواهنا , و لو كان الامر كذلك لما بقي اثر لتلك التصرفات اللإنسانية التي نواجهها في حياتنا نظرا لحدة و كثرة المؤسسات والجمعيات التي تطالب بالإنسانية , لكنها بالأساس جدارة واستحقاق لا يوصف بها الانسان إلا اذا ابرز انه فعلا انساني .فما الذي يبرز انسانيته ؟ اهو الدين ؟ ام المجتمع ؟ ام هي المشاعر و الاخلاق المتأصلة فينا ؟

الدين يبرز انسانية الانسان ؟ كيف ذلك و نحن نسمع كل يوم عن ما يقترفه الانسان في حق اخيه الانسان من جرائم بشعة ويعلي في وجهه راية الدين وينسبها اليه ؟

إذا ما تمعنا النظر الى ما آلت اليه البشرية في عصرنا , نرى ان الفهم الخاطى للدين و التعصب الشديد قد يولد فقدان الانسان لإنسانيته . او ليست جل الحروب التي نشاهدها في عصرنا ذات خلفية دينية ؟ هي كذلك , فالإنسان لا يقبل الاختلاف لأنه يخاف ان تلتقي قناعته مع معتقدات الطرف المقابل,الشيء الذي من المفترض ان يكون ايجابيا اذا ما كانت قناعة الشخص يقينية , اما اذا كان عكس ذلك ,فانه يواجه هذه الحالة بالنزاع و الصراع الذي يأخذ طابعا عدوانيا مروعا لا يقرب للانسانية بصلة .

فد يكون الدين مرتعا لتعليم المبادئ و الاخلاق التي ترسم حياة الانسان و تمنهج تعاملاته مع الاخر, لكن هل النسانية كذلك ؟ طبعا لا , ليست الانسانية بالشيء الذي يخط على الورق , ليست الانسانية بالشيء الذي يدرس و يعلم , وانما هي خاصية مكتسبة متجذرة في الانسان و متعلقة بشخصيته و بمدى نظرتة العاطفية للعالم و للأخر .

هل المجتمع يبرز انسانية الانسان ؟ ليس المجتمع في الواقع سوى مكملا للانسانية . لنتخيل معا مجتمعين مختلفين ، يقوم اولهما على القمع ، الظلم ، الاستبداد و الكراهية ، بيد ان الثاني يتأسس على روابط الحب و الشفقة و القيم الانسانية . فاذا ما أخذنا على سبيل المثال انسانا من المجتمع الاول ، فمن المستحيل ان نتوقع منه تعاملًا مماثلاً لإنسان أخذ من المجتمع الثاني ، و السر وراء ذلك هو ان كلا العينتين لا تتصرفان سوى على الطريقة التي علمهم اياها المجتمع . و يقول شوبنهاور في هذا المنحى : "الكراهية تنبع من القلب ، و الاحتقار من العقل ، و كلاهما خارج عن ارادتنا " اي ان المشاعر و السلوكيات السلبية لم تكن لنعلم بها لو اننا لم نتلقاها في المرة الاولى من المجتمع . نستخلص اذن انه لو كان المجتمع هو الذي يبرز الانسانية ، لوجدنا الجميع في نوع من النمطية التي تترجح بين الخير و الشر و ذلك حسب المجتمع الذي يتواجد فيه الشخص . و مع ذلك فلا يمكن تجاهل دور المجتمع في ابراز الانسانية ، و ذلك أننا نعتبره بمثابة الشرارة الاولى التي تشغل فتيل روح الإنسانية بتربية الإنسان وفق مبادئ و أسس سطحية شريطة ان تترك له المجال لتأمل فيها و التفكير في مدى صحتها ليتوصل إلى السيطرة على الشر الذي يحمل في داخله . و نأخذ على سبيل المثال ذلك الطفل الذي يعيش و صدى جمل والده يتردد في اذنه : "كن كريما ,كن رحيما, لا تكذب, احترم غيرك , عليك مشاركة غيرك" يطبقها تلقائيا بدون مناقشة , لكنه يصل في فترة من الفترات حياته إلى مرحلة تجعله يعيد النظر في هذه المبادئ التي أخذها كمسلمات و يضيف عليها طابعه الخاص بإدماج معتقداته و تصوره لمدى الخير و الشر , فيصبح انسانيا بارادته , و ليس كما حتم عليه المجتمع .

لقد اضحينا نتردد في القاء صفة الانساني على الانسان بالنظر الى ما يفعله البعض الاخر . وكيف لذلك ان يكون ونحن يشهد العالم بأجمعه يقترح في المجازر والمذابح التي يشهدها العالم والتي تمارس في حق البشرية دون يرف له جفن او يندى له جبين ؟ اين هي الانسانية عندما نسمع دوي القنابل والرصاص ينبعث من الجهة الاخرى من العالم ولا يحرك ذلك فينا اي ساكن؟ اين هي الانسانية عندما نرى الناس يموتون من الجوع و البرد ينادون ويستغيثون الإنسانيين من كل بقاع العالم ولكن لا حياة لمن يناديون ؟ اين هي الانسانية عندما تسفك الدماء وتدمر المنازل فوق رؤوس اهلها ؟ اين هي الانسانية عندما يقتل ابرياء لم يكن دنبهم سوى انهم ولدو في بلد تنخره الصراعات السياسية ؟

ان الانسانية من اولى الاوليات تسبق الانظمة البشرية و تسمو عن كل القوانين الوضعية و كما قال برودون "اليسقط الوطن وتنجو الإنسانية" . عندما نرى شخصا في مأزق وهو ففي امس الحاجة اليها فان دافعنا الانساني لا يكثر لكونه محقا او مخطئا بل يسرع لنجدته ناسيا ورائه كل قانون . نكون انسانيين عندما نبتعد عن التعصب ولا نترك المجال للغضب للسيطرة علينا , وكم هي تلك المواقف التي لا نعرف فيها انفسنا , يحيطنا فيها الغضب بمخالبه فيحولنا الى أداة للانتقام , تصفعنا حينها الانسانية وتجعلنا ندرك حقيقة انفسنا "انا انسان , ما الذي افعله ؟ "

نكون انسانيين عندما نعيش في سلم و سلام لكننا نتالم لمن يعيش في الحروب .

نكون انسانيين عندما نحب الخير للآخرين و نقدم مصالحهم على مصالحنا .

نكون انسانيين عندما نخرج للشارع و نحمل اللافتات نندد بالظلم و العدوانية و اللامساواة .

نكون انسانيين عندما نحترم اختلافاتنا و نمنعها من ان توقعنا في الصراعات .

نكون انسانيين عندما نتنازل عن حقنا ليستفيد منه من هو في اكثر حاجة منا .

و صفوة القول ، حتى و ان خلفت لدينا النكبات و الجرائم البشعة التي يخضع لها العالم انطبعا سلبيا عن الانسانية ، فلا بد ان نتشبت بالامال و نتطلع لغد افضل ، بل انه قد اصبح ديننا على عاتقنا ، نحن الاجيال الصاعدة ، ان نحبي الانسانية التي تحتضر ، و ننسي العالم سنوات الرعب و الفرع و الحروب .